مع الشيخين

ينظر الحسن عليه السلام عقب وفاة جده صلى الله عليه وسلم إلى الحزن البهيم الذى حل بأمه الرءوم فيتصدع قلبه ويذرف من الدموع ما ساعدته الجفون ، أى حزن هذا الذى حل بابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وريحانته ، حتى ضربوا بها المثل فى الحزن وعدوها من البكائين الخمسة الذين مثلوا الحزن والأسى فى عالم الوجود ، وبلغ من حزنها أن أنس بن مالك استأذن عليها ليعزيها بمصابها الجليل فقدمت له سؤالا مقروناً بالتفجع : كيف طابت نفوسكم أن تحثوا التراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعادتها أمهات المؤمنين مع بعض النسوة يسألنها عن حالها ويعزينها بمصابها فالتفتت لهن بقلب مكلوم قائلة : (أجدنى كارهة لدينا كن مسرورة بفراقكن ، ألقى الله ورسوله بحسرات منكن ، فما حفظ لى الحق ، ولا رعيت منى الذمة ، ولا قبلت الوصية ، ولا عرفت الحرمة) . وهكذا بقيت الزهراء بعد أبيها صلى الله عليه وسلم – وقد أضناها الحزن وهدها المصابُ وذاب قلبها أسى جحد القوم حقها وسليبهم تراثها .

وبقى الحسن عليه السلام معها فى تلك الفترة مصدوع الجسم خائر القوى ، قد ذبلت نضارة صباه ، لا يعرف فى نهاره إلا بيت الأحزان ، حيث يمضى مع أمه ليساعدها ويخفف عنها اللوعة والحسرة ويستمر معها

طيلة النهار ، فإذا أوشكت الشمس أن تغرب تقدمها مع أبيه وأخيه قافلين إلى الدار فيجد الوحشة والغمّ قد خيما عليها .

وفى اليوم الأخير من حياة الزهراء غسلت لولديها وأمرتهما بالخروج إلى زيارة قبر جدهما ، فخرجا عليهما السلام وهما يفكران فى الأمر هل أنهكت العلة أمهما ؟ ولم يلبثا كثيراً فى المسجد فرجعا قافلين إلى الدار ، فلما وصلا إليها قالا لأسماء – (أين أمنا ؟) فأجابتهما والارتباك والذهول باد عليها وهى تذرف الدموع ! يا سيدى إن أمكما قد انتقلت إلى حظيرة القدس فأخبرا أباكما بذلك فقد قلبهما بهذا النبأ المريع ورجعا إلى المسجد فاستقبلهما الناس قائلين لهما : ما يبكيكما يا بنى رسول الله لا أبكى الله لكما عيناً ، لعلكما نظرتما إلى موقف جدكما صلى الله عليه وسلم فبكيتما شوقاً إليه . فأجابا : أو ليس قد ماتت أمنا فاطمة . وسلبا شعور الناس وتركا الألم والندم يحز قلوبهم لأنهم فقدوا بضعة نبيهم وأعز أبنائه وبناته عنده .

ثم يصغى الحسن إلى مناجاة أبيه وهو يقول : « السلام عليك يا رسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك ، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ، إلا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز ، فلقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فلقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة . أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، (الليل المسهد الذى ينقضى بالسهر) إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم ، وستنبئك

ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فأحفها السؤال ، (الإحفاء بالسؤال الاستقصاء فيه) واستخبرها الحال ، هذا ولم يطل العهد ولم يخل منه الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين » .

يسمع الحسن هذه المناجاة الحزينة من أبيه فتلم به آلام مبرحة ، ويحف به حزن مرهق ، فقد رأى أعز ما فى الحياة عنده أمه الرءوم تحمل على الآلة الحدباء فتوارى فى الثرى فى غلس الليل البهيم .

وفى هذا يقول الأستاذ الفاضل كامل سليمان : (فإذا نظرنا إلى الحسن فى الفترة نجده بعد أن فقد جده وأمه تبدو على حركاته الصنعة والكلفة ؛ إذ يحس وهو بين ظهرانى هذا المجتمع الجديد أنه فى عالم غير العالم الذى ألفه فلا يجد نفسه فى المحل الذى عرّفه إليه جده فيتطلع إلى أفق أبعد . . يفكر كثيراً ويقدر كثيراً لأنه يرى أوضاعاً متقلبة وحروباً دائمة ، وإعداداً وتجهيزاً وأمة خاصمة مخصومة ، ويرى وسطاً لا عهد له به فيه إجلاب ما تعود سماعه ، فيجمع إحساساته المشتتة وتتحرك فى نفسه يقظة تختلف عن لا مبالاة الطفولة الهادئة ، ويبدأ بتفتيح عينيه مشرقاً ومغرباً شأن كل ناشئ تستتم مواهبه نموها ، فينفعل للمشاهد وتطفح نفسه بالمؤثرات التى تفيض عنها الحقيقة ؛ ها إنه ينظر فيكفهر الكون فى وجهه وتكتنفه وحشة بغيضة وجو غير محبب . إنه لا يرى جده الذى أفاض تعاليمه على الدنيا – ثم لا يرى أمه التى كان يركن إلى عطفها وإيناسها ، وإذ ذاك يتقلب بين قبر هذه فى البقيع وجدث

ذاك فى المسجد ليبكى قليلاً أو كثيراً وليسرى عن نفسه ويخفف من غلوائه .

فما حلت به أزمة من هذا النوع إلا كان يقصد البقيع أو المسجد وفى حسبانه أن شبحى محمد وفاطمة هما كل ما فى الكون .

وقد بينت بالتفصيل فى الجزء الثانى من كتاب أهل البيت كيف أن الإمام عليًّا كان يرشح نفسه للخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومما لا شك فيه أن ما استقر فى نفس الإمام على من الاستياء على أخذ حقه قد استقر فى نفس الحسن عليه السلام ، فجعله يؤنب وينتقد من احتل مركز أبيه ، فقد دخل الحسن المسجد وكان الصديق يخطب على المنبر فقال له :

– انزل عن منبر أبى واذهب إلى منبر أبيك .

– فأجابه أبو بكر – صدقت والله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبى[1].

على أن الإمام عليًّا لم يدخر وسعاً فى إبداء الرأى كلما احتاج إليه الخليفة ، وإذا حلت مشكلة لا يُتمكن من حلها رجعوا إلى الإمام على ليكشف لهم الستار عنها ، وكان يتولى أجوبة ذلك تارة بنفسه وأخرى يسند الحل إلى ولده الحسن ، فمن ذلك أن أعرابيًّا سأل الخليفة أبا بكر فقال : إنى أصبت بيض نعام فشويته وأكلته وأنا محرم فما يجب على ؟ فتحير الخليفة ولم ينطق جواباً ، وأحال الجواب إلى عمر فتحير كما تحير صاحبه ، وأحال

(١) شرح النهج لابن أبى الحد – وجاء فى الإصابة أن هذه الكلمة للحسين مع عمر بن الخطاب وفى الصواعق ص ١٠٥ أن الحسن قال لأبى بكر هذه الكلمة – ووقع للحسين – ذلك أيضاً مع عمر بن الخطاب .

الجواب إلى عبد الرحمن فعجز أيضاً وفزعوا إلى الإمام ، فوجه الأعرابى إليه السؤال السالف فالتفت إليه الإمام على قائلاً : سل أى الغلامين شئت وأشار إلى الحسن والحسين ، فتوجه الأعرابى إلى الحسن فسأله عن مسألته فقال له :

ألك إبل ؟

الأعرابى : نعم

فقال له الإمام الحسن : فاعمد إلى ما أكلت من البيض نوقاً فاضربهن فى الفحول فما ينتج منها اهده إلى بيت الله العتيق الذى حججت إليه ، فيلتفت إليه الإمام على قائلا : (إن من النوق السلوب وما يزلق)[1]

فأجابه الحسن : إن يكن من النوق السلوب وما يزلق فإن من البيض ما يمرق (مرقت البيضة أى فسدت) .

واستحسن الإمام على جواب وليده فالتفت إلى حضار مجلسه مشيداً بمواهب ولده ومعرباً عن غزارة علمه وفضله قائلا : « معاشر الناس إن الذى فهم هذا الغلام هو الذى فهمه سليمان بن داود » .

على أنه يمكن القول أن الخليفة الأول رضى الله عنه كان على يقين من فضل الحسن ، يعرف منزلته ويحدب عليه ويقلد جده فى الحنين إليه ، حتى إنه كان يخطب الناس ويحضهم على احترامه واحترام ذويه ويقول : أيها الناس ارقبوا محمداً فى أهل بيته ، واحفظوه فيهم فلا تؤذوهم .

---

(١) السلوب الناقة التى مات ولدها أو ألقته بغير تمام – والزلوق الناقة التى تلقى ولدها بغير تمام .

مكانة الإمام الحسن عند أمير المؤمنين عمر

فرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للحسن والحسين عليهما السلام مثل فريضة أهل بدر وقدمهما على كثير من المهاجرين والأنصار تقديراً لهما ولقرابتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يلحق معهما برجال بدر فمن لم يشهد الواقعة إلا سلمان الفارسي وأبا ذر .

وقال أمير المؤمنين عمر لقومه من بني عدى : (والله ما أدركنا الفضل في الدنيا إلا بمحمد ، ولا نرجو ما نرجو من الآخرة وثوابها إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ثم الأقرب فالأقرب) .

وعندما كسا أمير المؤمنين أصحاب النبي فلم يرتض في الكسوة ما يستصلحه لهما ، فبعث إلى اليمن فأتى لهما بحلل فاخرة ثم ما اطمأن باله ولا طابت نفسه إلا حين لبسا وخطرا أمامه .

وكيف لا يمتلئ صدره غبطة ولا يتيه جذلاً وهما ابنا رسول الله وهو يجلس للتوزيع بين قبره ومنبره ، في حين أن أبا حفص يعرف عنهما وعن سابقة الهاشميين مالا يسع الجاهل أن يرده أو ينكره ، فلم تمر سانحة إلا وصرح فيها بمعتقده ، ولا سنحت فرصة إلا وجهر فيها بما يكنه في نفسه نحوهما : فإنه عام الرفادة سنة سبع عشرة للهجرة عندما كرر الناس الاستسقاء وفشلوا قال لهم : لأستسقين غداً بمن يستسقى الله به ، ولما أصبح غدا عند العباس وقال له : اخرج بنا حتى نستسقى بك ، فقال العباس يا عمر اقعد في بيتي ثم

أرسل إلى بنى هاشم أن يتطهروا ويلبسوا من صالح ثيابهم – فأتوه ، فأخرج طيباً فطيبهم ثم خرج العباس وعلى أمامه والحسن عن يمينه والحسين عن يساره وبنو هاشم خلف ظهره ودعا العباس الله فسقى بهم . .

فإن فى اعتزاز عمر بهم وفى تسليمه بفضلهم إنصاف واطمئنان وثقة غالية ، بل إنه الحق يذعن إليه ابن الخطاب قانعاً راضياً – وكأنى به ساعتئذ قد عرف خطرهم عند الله فسقى خلفهم موقناً لا يحتمل الفشل ، أمام معجزة استدرار الغيث لأنه واثق كل الثقة بنجاح المعجزة وبساطع برهانهم وعظيم قدرهم[١].

وليس هذا آخر ما عنده من التلميح والتصريح ، فقد استأذن الحسن عليه مرة فلم يؤذن له ثم استأذن عبد الله ابنه فلم يؤذن له ، ومضى الحسن ومضى ابن عمر . . ولكن شيئاً داخل خاطر الحسن فاقتصد فى الكلام لمورده !

واستدعاه الخليفة فقال الحسن : لقد قلت يا أمير المؤمنين . إن لم يؤذن لعبد الله فلا يؤذن لى . . . وأنصت لكلمة الفصل تدور على لسان أبى حفص الذى قال : أنت أحق بالإذن منه ! وهل أنبت الشعر فى الرأس بعد الله إلا أنتم ؟

لقد كان أمير المؤمنين يؤثر الحسن ويأنس بحديثه إذاحضر ، وكان يستطلع أخباره إذا فارقه أو جافاه ، لأن مرتبة أبى محمد فى الأمة لم تعد خافية على أحد من سائر الناس فكيف بابن الخطاب الذى كان يقربه ويدنيه ويختصه من دون ولده ؟

لقد قسم السُّهمان يوماً فأعطاه وأعطى أخاه كل واحد منهما عشرة آلاف

---

(١) الحسن بن على (دراسة وتحليل) للأستاذ كامل سليمان

وأعطى ولده عبد الله ألف درهم ، فحنق عبد الله وعاتب أباه قائلا : (قد علمت سبقى فى الإسلام وهجرتى فكيف تفضل علىّ هذين الغلامين) .

وأعتقد أنه أقنع أباه وجاء بحجة لا يدحضها عدل أبيه وصلابته – بل لعله آمن بأنه قد استولى على مشاعره وحرك ناحية العاطفة والحساسية فيه ، ونسى بيان الأب الذى قال بغضب ! ! ويحك يا عبد الله ! ائتنى بمجد مثل جدهما وأب مثل أبيهما وأم مثل أمهما ، وجدة مثل جدتهما وخال مثل خالهما وخالة مثل خالاتهما ، وعم مثل عمهما وعمة مثل عمتهما ؛ فجدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوهما على وأمهما فاطمة وجدتهما خديجة وخالهما إبراهيم وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم ، وعمهما جعفر بن أبى طالب وعمتهما أم هانئ بنت أبى طالب ، وقد نسبهما وانتسب فما ساوى واحداً بواحد ، وأقنع ولده ببساطة ومنطق سيال ، وعرّفه بذينك الغلامين فطأطأ عبد الله الهام إذعاناً للحق واحتراماً لمقالة الوالد ، وأصبح بعدها وبفضلها – يعترف بحقهما ويذب عنهما حتى اتهم بمغالاته فى الهاشميين جميعاً . وكيف لا يكون عبد الله كذلك وقد أعطاه أبوه الأماثيل فى كل قول قاله بعلىّ أو كل حكم حكمه على رأى علىّ وكل مشورة استشار بها عليًّا !

ولأمير المؤمنين عذره فى إيثار الحسن – لأنه مضافاً إلى ما سمع يتطلع فيمن هم حوله فلا تقع عينه إلا على من يقول : سمعت رسول الله – أو حدثنى رسول الله – أو قال فلان قال رسول الله ، موصياً بالحسن وأخيه ومعلناً تنصيبهما سيدين محاطين بالتجلة والإكرام ، وإمامين قاما بالأمر أو قعدا عنه .